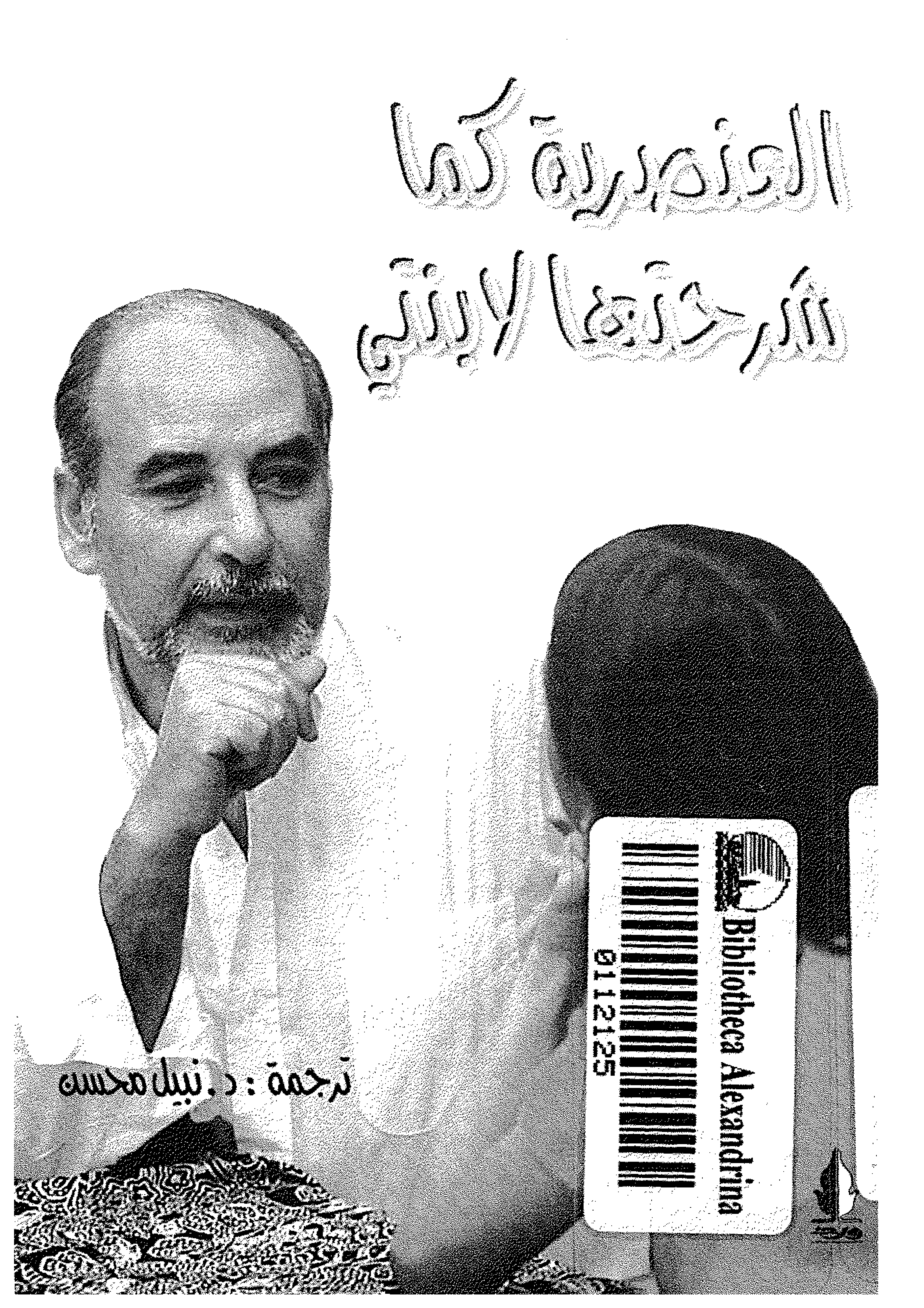
الطاهر بن جلّون



العنصرية كما شرحتها لابنتي

ترجمة : د. نبيل محسن

العنصرية كما شرحتها لابنتي

* الطاهر بن جلّون
* العنصرية كما شرحتها لابنتي
* ترجمة: د. نبيل محسن

* الطبعة الأولى 1998
* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق ☎ 3321053
* الإشراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 4490

الطاهر بن جلون

العنصرية كما شرحتها لابنتي

ترجمة: د. نبيل محسن

العنوان الأصلي للكتاب:

Le racisme
expliqué
à ma fille

مقدمة المترجم

سنحت لي الفرصة، أثناء وجودي في فرنسا في منتصف الثمانينات أن أشهد على الأرض فصلاً من الجدل الدائر حول العنصرية ومعاداة الأجانب والمطالبة بطردهم. وأذكر يومها تعرض بعض المهاجرين المتحدرين من أصل عربي لاعتداءات متفرقة. فقامت على الأثر تظاهرات ضخمة في المدن الفرنسية تندد بالعنصرية شاركت فيها الأحزاب والهيئات الإنسانية والثقافية والنقابات العمالية والطلاب وقد رفع جميعهم شعاراً يقول باللغة الفرنسية: «Touche pas a mon pot» أي «لاتتعرض لصديقي» والصديق هو الأجنبي أو

الملون أو المهاجر الذي يعمل على الأراضي الفرنسية.

لقد كان الارتفاع الحاد في عدد العاطلين عن العمل على رأس الأسباب التي أثارت مشاعر العداء للأجانب، إذ بلغ عددهم في تلك الفترة مليوني شخص. يأتي بعده عدم تكيّف الجيل الثاني من المهاجرين مع قيم المجتمع الفرنسي وإحساسهم بالظلم والقهر، خاصة مع انتشار الفقر والبطالة بينهم. يضاف إلى كل ذلك تنامي المد الإسلامي الأصولي وتصريحه بمعاداته للغرب. واستمرت الأزمة فصولاً رغم كل الإجراءات التي اتخذتها الحكومات المتعاقبة. فوصل عدد العاطلين عن العمل في منتصف التسعينات إلى ثلاثة ملايين شخص. وازدادت الهوة الاقتصادية بين ضفتي المتوسط اتساعاً، وكذلك الوضع المتأزم في الجزائر، الأمر الذي كان يحرك الهجرة باتجاه الشمال. وقد استطاع حزب الجبهة الوطنية الذي اتخذ من معاداة الأجانب شعاراً له استغلال الخوف والإحباط عند بعض الفرنسيين من أجل كسب المزيد من المؤيدين إلى صفوفه. وفي المقابل أثبت الناشطون المناهضون للعنصرية وجودهم على الساحة الفرنسية، وأظهر الرأي العام الفرنسي

نضجه وإخلاصه لقيمه الجوهرية في أكثر من مناسبة ورفضه لكل أشكال التمييز العرقي والطائفي والطبقي.

يتناول الطاهر بن جلّون في كتابه هذا ظاهرة العنصرية بالشرح والتحليل. وهو يعلن منذ اللحظة الأولى التزامه بالكفاح ضد العنصرية من خلال مشاركته في التظاهر ورغبته بمعالجة ظاهرة العنصرية بكل أشكالها وأقنعتها، وفي كل مواقعها وأزمنتها. لأن العنصرية ليست موجهة فقط إلى المهاجرين المتحدرين من أصل عربي أو إلى الأفارقة الموجودين في فرنسا. فهناك ممارسات عنصرية في رواندا ويوغوسلافيا السابقة وجنوب أفريقيا وغيرها من الأماكن التي يذكرها.

ولكن الطاهر بن جلّون وهو الأديب والروائي الكبير الحائز على جائزة غونكور الفرنسية، وصاحب الشهرة العربية والعالمية، يحايد في نصه هذا عما ارتكبته اسرائيل، الدولة العنصرية، من جرائم ومذابح وحروب وقتل واغتصاب أراضٍ وتهجير وتشييد مستعمرات على الأراضي العربية خلال نصف قرنٍ من احتلال فلسطين ومحاولة تهويدها. وهو يشيد بالتعايش بين اليهود

والمسلمين في المغرب خلال إحدى عشر قرناً، وحماية ملك المغرب لهم أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكنه ينسى أن قسماً كبيراً من هؤلاء تحوّل إلى مستوطنين ومتدينين مسلّحين وجنود في جيش الاحتلال يمارسون التمييز العنصري ويرتكبون المجازر ضد العرب داخل فلسطين وخارجها. وهو إذ يقول إن تعرض بعضهم للتمييز العنصري لايمنعهم من أن يكونوا عنصريين، يتناسى أن العرب هم الذين يدفعون ثمن الاضطهاد والتمييز العنصري الذي مورس على اليهود في أوروبا وألمانيا النازية. إن تَقّمص اسرائيل، منذ قيامها، لشخصية الدولة النازية، وممارستها للعنصرية واضطهاد العرب كحالة تعويضية استثنائية في التاريخ المعاصر، يستحق من الكاتب الذي يتوخى الشمولية والعدل والإنصاف أن يتوقف عنده وألا يكون حيادياً.

يعتقد بن جلّون في تحليله للسلوك العنصري أن الخوف والجهل من أهم خصائصه؛ الخوف من الأجنبي الذي يأتي ليسلب المقيم عمله وماله، والجهل بثقافة الآخر وتقاليده وقيمه. وغني عن القول إن معالجة النقطة الأولى ممكنة ومتاحة، وهي تتطلب توقف الدول الغنية والمتقدمة عن

استغلال الشعوب الفقيرة ومساعدتها للنهوض باقتصادها. إن رفع الظلم والقهر يزيل شعور العداء والكراهية. كما أن تحسين مستوى المعيشة وتحقيق العدالة الاقتصادية يحدّ من الهجرات غير المرغوبة. أما فرص العمل التي يحصل عليها المهاجر فهي فرص متوافرة يحصل عليها لأنه قادر على إنجازها بشكل أفضل أو بكلفةٍ أقل، وفي الحالتين هناك فائدة للمجتمع المضيف. وتبقى مقولة الجهل التي تجاوزها الزمن. لأننا نعيش عصراً من الاتصال والتواصل الكوني يشجع الالتقاء مع الآخر والتعرف إليه بسهولة شديدة. إذاً لايوجد جهل، يوجد تجاهل. وأعتقد أن تجاهل بعض الشعوب والجماعات ومنعها من المشاركة في مسيرة التطور والحضارة الإنسانية هو الذي يقود إلى ردات فعل عنيفة من جانبها.

إن السبب الأساسي للعنصرية، كما أرى، هو أنانية الطبيعة الإنسانية التي بدلاً من استئصالها تجد يومياً مايثيرها ويعززها، خاصة قيم المجتمع المدني المعاصر التي تعطيها شعوراً لايُقاوَم يسوّغ رفض الآخر تحت حجج مختلفة.

إن الوقوف في وجه العنصرية يجب أن يعني

رفض كل أشكال التمييز بين إنسان وآخر، أي رفض الطائفية ورفض الطبقية ورفض الهيمنة، والسعي إلى تحقيق الوحدة الإنسانية بغض النظر عن الانتماء إلى عرق أو طائفة أو مذهب أو طبقة اجتماعية. فالإنسانية من منشأ روحي ومادي واحد، ومن ماهية واحدة. لذلك فإن مايصيب الإنسان ينعكس على أخيه الإنسان، ومايتعرض له شعب من الشعوب ينعكس على الشعوب الأخرى.

ولايتوانى العنصريون عن استغلال العلم ليثبتوا وجود تفاوت بين الأعراق. فقد ظهرت منذ فترة في الولايات المتحدة دراسات إحصائية تتحدث عن تفوق ذكاء العرق الأبيض على ذكاء العرق الأسود ومحاولة تفسير ذلك بالمورّثات. والحق أن علم الوراثة لم يكتشف مورّثة مسؤولة عن الذكاء. والعلم يكرس وحدة الإنسانية ولايميز بين عرق وآخر. فبنية العضوية والصيرورات الكيميائية والفيزيائية هي ذاتها عند كل الأعراق.

وما يصح على المستوى المادي يصح كذلك على المستوى الميتافيزيائي. لقد كانت الأديان سبباً دائماً للإقتتال والكراهية والمواجهة. إذ عندما يعتقد فريق أنه يمتلك الحقيقة المطلقة فمن الطبيعي أن ينظر إلى الآخرين على أنهم خاضعون

لمملكة الشيطان. والحق أنه لايوجد فريق واحد يمتلك الحقيقة المطلقة لأن الأديان تتكامل، وهي واحدة في جوهرها مثلما هي الإنسانية واحدة في جوهرها.

لايمكن اليوم تعليل رفض الإنسان لأخيه الإنسان. لأن الآخر يفرض نفسه عليك ثقافياً وحضارياً في عصرٍ بات فيه الانتقال سهلاً والاتصال سهلاً. لم يعد هناك حدود بين الحضارات. في الماضي كانت ولادة حضارة ما تتطلب مخاضاً طويلاً وكذلك الالتقاء بين الحضارات. أما اليوم فإن الكوكب يضيق بسكانه وتتداخل فيه الشعوب والأعراق ولم يعد ممكناً التحدث عن عرقٍ صافٍ مثلما لم يعد ممكناً التحدث عن حضارة خاصة أو ثقافة خاصة. على العكس، كل الإمكانات متاحة اليوم لقيام فضاء جديد من الوعي الإنساني الكلّي.

رغم الضغوطات المتزايدة والأعباء التي تضع الإنسان في مواجهة أخيه الإنسان، عليه أن يخترق حدود الرفض المتبادل ليدخل منطقة التجاذب الداخلي. ولن يؤثر التزايد المؤسف للعنصرية مهما كان سيئاً ومدمراً على صيرورة الإنسان الكليّة لأن أي ميل إنساني إلى التجزئة والتفتيت، بغض النظر

عن محتواه ومنشئه، يسقط أمام اتجاهات الالتقاء الجغرافية والديموغرافية والاقتصادية والنفسية، التي يدفع ضغطها المتزايد باستمرار وبشكل طبيعي إلى نوع من الكلّية الإنسانية تقوم على أساس التكافل والتكامل.

د. نبيل محسن

مقدمة

أتتني فكرة كتابة هذا النص أثناء توجهي مع ابنتي للتظاهر، في 22 شباط 1997 ، ضد قانون دوبريه «Debre» المتعلق بدخول وإقامة الأجانب في فرنسا. لقد طَرَحَتْ عليَّ ابنتي ذات العشر سنوات أسئلة كثيرة. كانت تريد أن تعرف لماذا نتظاهر، وماذا تعني بعض الشعارات، وما إذا كان السير في الشوارع للاعتراض يفيد في شيء. الخ...

هكذا وصلنا إلى الحديث عن العنصرية. لقد حرّرت هذا النص وأنا أتذكر تساؤلاتها وأفكارها. في المرة الأولى قرأناه معاً، فكان علي أن أعيد كتابته بشكل كامل تقريباً وأن أغيّر كلمات معقدة وأشرح مفاهيم صعبة. ثم جرت قراءة أخرى

بحضور اثنتين من صديقاتها. كانت ردات فعلهما مثيرة للاهتمام وقد أخذتها بعين الاعتبار في النسخ التي حررتُها بعد ذلك.

لقد كُتب هذا النص خمس عشرة مرة على الأقل، من أجل الوضوح والبساطة والموضوعية. كنت أريده أن يصبح بمتناول الجميع حتى لو خصصتُه أولاً للأطفال بين الثامنة والرابعة عشرة، يمكن لأهاليهم أن يقرؤوه أيضاً.

لقد انطلقت من مبدأ أن مكافحة العنصرية تبدأ بالتربية. فنحن نستطيع تربية الأطفال ولكننا لانستطيع تربية البالغين. لهذا فكرت وكتبت هذا النص بهمٍّ تربوي.

أريد أن أشكر الأصدقاء الذين تفضلوا بقراءة النص وإبلاغي ملاحظاتهم. وأشكر أيضاً صديقتَي مريم اللتين شاركتا في وضع الأسئلة.

ـ قل لي ياأبي ماهي العنصرية؟

ـ العنصرية سلوك منتشر إلى حد ما، شائع في كل المجتمعات، وقد أصبح للأسف عادياً في بعض الدول، لأن أحداً لاينتبه له. وهو يقوم على الحذر من أشخاص يمتلكون صفات فيزيائية وثقافية مختلفة عن صفاتنا، وحتى احتقارهم.

ـ عندما تقول شائعاً هل تريد أن تقول عادياً؟

ـ كلا، إذا كان السلوك شائعاً فهذا لايعني أنه عادي. يميل الإنسان عموماً إلى الحذر ممن يختلف عنه، كالأجنبي مثلاً. إنه سلوك قديم قِدَم الإنسان، سلوك عالمي، وهو يمس كل الناس.

ـ إذا كان يمس كل الناس فهل يمكن أن أكون عنصرية!

ـ أولاً إن طبيعة الأطفال التلقائية ليست

عنصرية. لايولد الطفل عنصرياً. إذا لم يضع أهله وأقاربه أفكاراً عنصرية في رأسه فلا يوجد سبب يجعله عنصرياً. على سبيل المثال، إذا جعلناك تعتقدين أن ذوي البشرة البيضاء متفوقون على ذوي البشرة السوداء، وأخذتِ هذا التأكيد محمل الجد، قد يصبح لديك سلوك عنصري تجاه السود.

ـ مامعنى أن يكون المرء فوقياً؟

ـ إنه الاعتقاد بأن مجرد كون بشرتنا بيضاء نكون أكثر ذكاء من شخص له لون آخر لبشرته، سوداء أو صفراء، بطريقة أخرى إن الصفات الفيزيائية للجسد الإنساني، التي تميز أحدنا عن الآخر، لاتعني أي تفاوت.

ـ هل تعتقد أنني قد أصبح عنصرية؟

ـ أن تصبحي عنصرية، هذا ممكن. كل شيء يتعلق بالتربية التي تلقَّيتها. من الأفضل أن يعرف المرء العنصرية وأن يمتنع عن أن يكونها. بطريقة أخرى، أن يقبل بفكرة أن كل طفل أو كل بالغ قابل لأن يحدث عنده يوماً ما شعور أو سلوك رفض إزاء شخص لم يفعل له شيئاً ولكنه مختلف عنه. هذا يحدث كثيراً. كلٌّ منا قد يحدث عنده يوماً ما شعور سيء أو حركة سيئة. يزعجنا وجود شخص غير

مألوف لنا، نظن أننا أفضل منه، نشعر بالفوقية أو بالدونية إزاءه، نرفضه، لانريده جاراً لنا ولاصديقاً لأنه مختلف بكل بساطة.

ـ مختلف؟

ـ إن الاختلاف هو عكس التشابه، وعكس ماهو مماثل. الاختلاف الجلي الأول هو الجنس. فالرجل يشعر أنه مختلف عن المرأة والعكس. وعلى العموم عندما يتعلق الأمر بهذا الاختلاف يكون هناك جاذبية.

فضلاً عن ذلك، إن الذي ندعوه «مختلف» له لون بشرة أخرى ويتكلم لغة أخرى ويطبخ بشكل آخر ولديه عادات أخرى وديانة أخرى وطرق أخرى للعيش والاحتفال الخ. وهناك الاختلاف الذي يتجلّى بالمظاهر الفيزيائية (الطول ولون البشرة وملامح الوجه الخ) ثم يأتي اختلاف السلوك والعقليات والمعتقدات الخ.

ـ إذاً لايحب العنصري اللغات والمأكولات والألوان التي لاتخصّه؟

ـ كلا ليس بالضبط، قد يحب العنصري لغات أخرى ويتعلمها لأنه بحاجة لها من أجل عمله أو

تسليته لكنه قد يحمل حكماً سلبياً ومجحفاً بحق الشعوب التي تتكلم هذه اللغات. كما أنه قد يرفض أن يؤجِّر غرفة إلى طالب أجنبي، ڤيتنامي مثلاً، مع أنه يحب أن يذهب ليأكل في المطاعم الآسيوية. العنصري هو من يظن أن كل مايختلف عنه بشدة يهدد طمأنينته.

ـ أهو العنصري الذي يشعر أنه مُهدَّدٌ؟

ـ نعم لأنه يخاف مما لايشبهه. العنصري هو من يعاني من عقدة دونيّة أو فوقيّة، لافرق، لأن سلوكه في الحالتين هو الاحتقار.

ـ هل يخاف؟

ـ يحتاج الإنسان لأن يَطْمئن. لايحب كثيراً مايوشك أن يزعجه في قناعاته. فهو يميل إلى الحذر من الجديد. غالباً مانخاف مما لانعرفه. نخاف في الظلام لأننا لانرى ماقد يحدث لنا عندما تكون كل الأنوار مطفأة. نشعر أننا عُزَّل في مواجهة المجهول. نتخيل أموراً مرعبة دون سبب. وهذا غير منطقي. أحياناً لايوجد ما يسوِّغ الخوف ومع ذلك نخاف. عبثاً نحاول أن نتعقل، ونتصرف كما لو أن خطراً حقيقياً يتهددنا. العنصرية ليست شيئاً صحيحاً أو منطقياً.

ـ أبي إذا كان العنصري رجلاً يخاف فهذا يعني أن زعيم الحزب الذي لايحب الأجانب خائف طوال الوقت. ومع ذلك كلما ظهر على التلفاز أنا التي تشعر بالخوف فهو يصرخ ويهدد الصحافيين ويضرب بكفّه على الطاولة.

ـ نعم ولكن الزعيم الذي تتحدثين عنه رجل سياسي معروف بعدوانيته، وعنصريتُه تعبّر عن نفسها بطريقة عنيفة. إنه ينقل إلى الناس سيئي الاطلاع تأكيدات خاطئة لكي يخافوا، كما أنه يستثمر خوف الناس الحقيقي أحياناً. فهو يقول لهم على سبيل المثال إن المهاجرين يأتون إلى فرنسا لكي يأخذوا عمل الفرنسيين، ويقبضوا الإعانات العائلية ويتعالجوا مجاناً في المشافي. هذا غير صحيح. غالباً مايقوم المهاجرون بالأعمال التي يرفضها الفرنسيون. وهم يدفعون الضرائب ويشتركون بالضمان الاجتماعي ولهم الحق بالعلاج عندما يمرضون. إذا طُرد غداً، لسوء الحظ، كل المهاجرين من فرنسا فإن اقتصاد هذا البلد سينهار.

ـ فهمت، العنصري يخاف بلا سبب.

ـ إنه يخاف من الأجنبي، والذي لايعرفه، خاصة إذا كان هذا الأجنبي أكثر فقراً منه. فهو

يحذر من العامل الأفريقي أكثر مما يحذر من ملياردير أميركي. أكثر من ذلك، عندما يأتي أمير من المملكة السعودية ليُمضي إجازاته على الشاطئ اللازوردي يُستقبل بأذرع مفتوحة، لأنهم هنا لايستقبلون العربي، وإنما الرجل الغني الذي أتى لينفق المال.

- من هو الأجنبي؟

- إن كلمة أجنبي «Etranger» تأتي من كلمة «Etrange» التي تعني مِنَ الخارج، وهي تشير إلى من هو من غير العائلة أو العشيرة أو القبيلة. إنه فرد يأتي من بلد آخر قريب أو بعيد، وأحياناً من مدينة أخرى أو قرية أخرى. وهذا ما أعطى كلمة «Xenophobie» (رهاب الأجانب) التي تعني معاداة الأجانب وكل مايأتي من الخارج. واليوم تشير كلمة «Etrange» (غريب) إلى شيء غير مألوف، شديد الاختلاف عما اعتدنا رؤيته، ولها كمرادف كلمة «Bizarre» (عجيب).

- هل أكون أجنبية عندما أذهب إلى صديقتي في النورماندي؟

- بالنسبة لسكان المنطقة، نعم بلا شك. بما

أنك تأتين من مكان آخر، من باريس، وبما أنك مغربية. هل تتذكرين عندما ذهبنا إلى السنغال؟ لقد كنا أجانباً بالنسبة للسنغاليين.

- ولكن السنغاليين لم يخافوا مني كما أنني لم أخَفْ منهم!

- نعم لأننا، أنا وأمك، كنا قد شرحنا لك أنه يجب ألا تخافي من الأجانب سواء كانوا أغنياء أو فقراء، كباراً أو صغاراً، بيضاً أو سوداً.

لاتنسي أننا دائماً أجانب بالنسبة لأحدهم، أي أن الآخر الذي لاينتمي إلى ثقافتنا يرانا دائماً كأجانب.

- قل لي ياأبي لم أفهم بعد لماذا توجد العنصرية في كل مكان تقريباً.

- في المجتمعات القديمة جداً والتي تدعى بدائية، كان للإنسان سلوك قريب من سلوك الحيوان. يبدأ القط مثلاً بتحديد أرضه، فإذا حاول قط آخر أو حيوان آخر أن يسرق له غذاءه أو أن يهاجم صغاره، فإن القط الذي يشعر أنه في أرضه يدافع عن نفسه ويحمي أطفاله بكل ماأوتي من مخالب. وهكذا الإنسان، يحب أن يكون له منزله

وأرضه وأملاكه، ويقاتل من أجل المحافظة عليها، وهذا عادي. أما العنصري فيظن أن الأجنبي كائنٌ من كان سيأخذ له أملاكه. لذلك فهو يَحْذر منه دون أن يفكر حتى، بشكل شبه غريزي. لايُقاتل الحيوان إلا عندما يُهاجِم، ولكن الإنسان يُهاجم الأجنبي حتى لو لم يكن في نية هذا الأخير أن يسلبه أي شيء.

ـ وهل تجد أن هذا شائع في كل المجتمعات؟

ـ شائع ومنتشر إلى حد ما، نعم، ولكنه ليس عادياً. منذ فترة طويلة والإنسان يتصرف هكذا. فهناك الطبيعة ثم الثقافة. بطريقة أخرى، هناك السلوك الغريزي، دون تفكير ودون تعليل، ثم هناك السلوك المتعقّل الذي اكتسبناه بالتربية والمدرسة والتفكير. هذا هو ماندعوه (ثقافة) في مقابل (طبيعة). مع الثقافة نتعلم أن نعيش معاً، ونتعلم بشكل خاص أننا لسنا وحيدين في هذا العالم، وأنه يوجد شعوب أخرى لها تقاليد أخرى وطرق عيش أخرى مشروعة أيضاً بقدر ماهي طرقنا.

ـ إذا كُنتَ بالثقافة تقصد التربية فإن العنصرية قد تأتي أيضاً مما نتعلمه...

ـ لانولد عنصريين، إننا نصبح عنصريين.

هناك تربية صالحة وتربية سيئة. والأمر يتعلق بمن يربّي سواء كانت المدرسة أو المنزل.

ـ إذاً فالحيوان الذي لايتلقى أية تربية أفضل من الإنسان!

ـ لنقل إن الحيوان لايمتلك مشاعر مسبقة. أما الإنسان فعلى العكس، إنه يمتلك ماندعوه أحكاماً مسبقة، فهو يحكم على الآخرين قبل أن يعرفهم، يظن بأنه يعرف مسبقاً من هم وماقيمتهم، وهو يخطئ غالباً. من هنا يأتي خوفه، ومن أجل محاربة هذا الخوف يُقاد الإنسان أحياناً إلى الحرب. وأنت تعرفين عندما أقول إنه خائف لايجب أن تعتقدي بأنه يرتجف، على العكس، إن خوفه هو السبب في عدوانيته؛ يشعر بأنه مهدد فيهاجم. إن العنصري عدواني.

ـ إذاً هل تندلع الحروب بسبب العنصرية؟

ـ بعضها، نعم. في الأساس هناك إرادة أخذ ملك الآخرين. وتُستخدم العنصرية أو الدين من أجل دفع الناس إلى البغضاء والكراهية في حين أنهم لايعرفون بعضهم حتى. هناك الخوف من الأجنبي، الخوف من أن يأخذ منزلي وعملي وزوجتي، والجهل هو الذي يغذي الخوف. فأنا لاأعرف من

هو هذا الأجنبي وكذلك هو لايعرف من أنا. انظري مثلاً إلى جيراننا في المبنى. لقد كانوا حذرين منا لفترة طويلة إلى أن أتى اليوم الذي دعوناهم فيه إلى تناول (الكُسْكُسْ)، عندها فقط انتبهوا أننا نعيش مثلهم ولم نعد نبدو خطرين في نظرهم مع أننا نأتي من بلد آخر هو المغرب. بدعوتنا لهم طردْنا حذرهم. لقد تحادثنا وتعارفنا بشكل أفضل وضحكنا معاً، وهذا يعني أننا كنا مرتاحين مابيننا في حين أننا في السابق عندما كنا نلتقي على الدرج نكاد لانتبادل كلمة صباح الخير.

- إذاً من أجل الوقوف ضد العنصرية يجب تبادل الدعوات!

- إنها فكرة جيدة. يجب أن نتعلم أن نتعارف ونتحدث ونضحك معاً، وأن نحاول مشاركة الأفراح وكذلك الأحزان أيضاً، وأن نُظهر أن لنا غالباً الاهتمامات ذاتها والمشاكل ذاتها. هذا مايؤدي إلى تراجع العنصرية. وقد يكون السفر أيضاً وسيلة جيدة من أجل التعرف بشكل أفضل إلى الآخرين. كان مونتاني Montaigne [1] (1533 - 1592) يشجع

(1) Montaigne كاتب فرنسي نشر في Les Essais 1580 هي مقالات يتحدث فيها عن نفسه ويكتشف فيها، من خلال تناقضات طبيعته الخاصة، عجز الانسان عن كشف الحقيقة وتحقيق ←

مواطنيه على السفِر وملاحظة الاختلافات، لقد كان السفر بالنسبة له الوسيلة المثلى من أجل «صقل دماغنا واحتكاكه بدماغ الآخر». أي التعرف إلى الآخرين من أجل أن نعرف أنفسنا أفضل.

ـ هل وُجِدتْ العنصرية دائماً؟

ـ نعم، منذ أن وُجِدَ الإنسان بأشكال تختلف حسب العصور. ففي عهد قديم جداً، عهد ماقبل التاريخ الذي دعاه أحد الروائيين بحرب النار، كان الناس يهاجمون بعضهم بأسلحة بدائية، بهراوات بسيطة، من أجل أرض أو كوخ أو امرأة أو مؤن غذائية... الخ. فكانوا يعزِّزون الحدود ويشحذون أسلحتهم خوفاً من التعرض للغزو. إن الإنسان مهووس بسلامته، مما يدفعه أحياناً إلى الخشية من الجار والأجنبي.

ـ العنصرية هي الحرب إذن؟

ـ قد يكون للحروب أسباب مختلفة وغالباً

← العدالة. وقد قام بين 1580 و 1581 بجولة في أرجاء أوروبا علّمته نسبية الأشياء الإنسانية وترك عنها أثراً يؤكد أن فن الحياة يجب أن يرتكز إلى حِكمةٍ يلهمها التحمل وقبول الآخر.

اقتصادية. ولكن إضافة إلى ذلك، يقوم بعضها باسم التفوق المزعوم لفريق على آخر. يمكن تجاوز هذا المظهر الغريزي بالتعقّل وبالتربية، ومن أجل الوصول إلى ذلك يجب أن نقرر ألانخاف من الجار والأجنبي.

ـ إذاً ماذا نستطيع أن نفعل؟

ـ التعلم والتربية والتفكير، والسعي إلى فهم كل شيء. وإظهار الاهتمام بكل مايمس الإنسان وضبط غرائزه الأولى ودوافعه «Pulsion»...

ـ وماهو الدافع؟

ـ إنه فعل الدَّفع والسعي صوب هدف دون تعقّل. وقد أعطت هذه الكلمة كلمة الرد «Repulsion» وهي فعل رد العدو وطرد أحدهم إلى الخارج. كما أن الرد قد يعني أيضاً النفور، وهو يعبّر عن شعور سلبي جداً.

ـ أي أن العنصري هو الذي يدفع الأجنبي إلى الخارج لأنه ينفر منه؟

ـ نعم فهو يطرده حتى لو لم يكن مُهَدداً لأنه

لايعجبه بكل بساطة. ومن أجل تعليل هذا الفعل العنيف يخترع الحجج التي تناسبه. وهو يستخدم العلم أحياناً مع أن العلم لم يسوّغ العنصرية أبداً. وهو يعزو للعلم أي شيء لأنه يعتقد أن العلم يزوّده بأدلة صلبة ولاتقبل الدحض. ليس للعنصرية أي أساس علمي حتى لو حاول بعض الأشخاص استخدام العلم من أجل تأييد أفكارهم عن التمييز «Discrimination».

ـ ماذا تعني هذه الكلمة؟

ـ إنها فصل فئة اجتماعية أو عرقية عن الآخرين ومعاملتها بشكل أسوأ. كما لو أن إدارة مدرسة ما تقرر على سبيل المثال تجميع كل الطلاب السود في صف واحد لأنها تعتبر أن هؤلاء الأطفال أقل ذكاء من الآخرين. لحسن الحظ لايوجد هذا التمييز في المدارس الفرنسية، كان موجوداً في أميركا وأفريقيا الجنوبية. عندما نجبر مجموعة عرقية أو دينية على التجمع لكي تحيا معزولة عن بقية السكان نخلق مايدعى (بالغيتو) «Ghettos».

ـ وهل هو سجن؟

ـ إن كلمة غيتو اسم لجزيرة صغيرة في مقابل

مدينة البندقية في إيطاليا. لقد أُرسل يهود البندقية في عام 1516 إلى هذه الجزيرة وفُصِلوا عن بقية الجماعات. الغيتو هو شكل من السجن. على أية حال إنه تمييز.

ـ وماهي أدلة العنصري العلمية؟

ـ لايوجد أدلة علمية ولكن العنصري يعتقد أو يدفع للاعتقاد أن الأجنبي ينتمي إلى عِرْق آخر يعتبره عرقاً أدنى. ولكنه مخطئ تماماً، يوجد عِرْق واحد فقط. ندعوه النوع الإنساني أو الجنس البشري في مقابل الجنس الحيواني. إن الاختلافات كبيرة بين نوع وآخر عند الحيوانات، فهناك النوع الكلبي، والنوع البقري. كما أن الاختلافات عند النوع الكلبي هامة بين كلب الحراسة وكلب الصيد بحيث يمكن تحديد الأعراق. ولكن هذا الأمر مستحيل بالنسبة للجنس البشري لأن الإنسان يساوي الإنسان.

ـ ولكن ياأبي يقال إن أحدهم من العِرق الأبيض والآخر من العِرق الأسود أو الأصفر. هذا مايقولونه لنا في المدرسة في أغلب الأحيان، حتى أن مدرّستنا قالت لنا ذلك اليوم إن «عبدو» الذي يأتي من مالي هو من العِرق الأسود.

ـ إذا كانت مدِّرستك قد قالت ذلك فعلاً فهي تخطئ. أنا آسف أن أقول لك ذلك فأنا أعرف أنك تحبينها كثيراً. لكنها ترتكب خطأً وأعتقد أنها لاتعرف هي ذاتها ذلك. اسمعيني جيداً يابنتي: لاوجود للأعراق الإنسانية. يوجد جنس بشري فيه رجال ونساء وأشخاص لهم لون وقامة طويلة أو قصيرة مع إمكانات مختلفة ومتنوعة، ثم هناك العديد من الأجناس الحيوانية. يجب ألّا نستخدم كلمة عِرْق لنقول بأنه يوجد تنوع إنساني. ليس لكلمة عرق أساس علمي، لقد استُخدمت من أجل تضخيم آثار الاختلافات الظاهرة أي الفيزيائية. لايحق لنا الاستناد إلى الاختلافات الفيزيائية كلون البشرة والثقافة وملامح الوجه من أجل تقسيم الإنسانية بصورة تراتبية. أي اعتبار أنه يوجد أشخاص متفوقون بالنسبة لأشخاص آخرين نضعهم في صف أدنى. بطريقة أخرى، لايحق لنا الاعتقاد ـ وخاصة تشجيع الاعتقاد ـ بأننا نمتلك صفات إضافية بالنسبة لشخص ملون لأن بشرتنا بيضاء. واقترح عليكِ أن تكفّي عن استخدام كلمة عِرق. لقد استُغلت كثيراً من قبل أشخاص سيئي النية لدرجة أنه يفضل استبدالها بكلمتي الجنس

البشري. إذاً يتألف الجنس البشري من مجموعات مختلفة ومتنوعة. ولكن كل رجال وكل نساء الكوكب يجري في عروقهم دم له اللون ذاته، سواء كانت بشرتهم زهرية أو بيضاء أو سوداء أو كستنائية أو صفراء أو غيرها.

- لماذا للأفريقيين بشرة سوداء وللأوربيين بشرة بيضاء؟

- يعود المظهر القاتم للبشرة إلى صباغ يدعى «الميلانين». يوجد هذا الصباغ عند الكائنات الإنسانية ولكن الجسم يصنعه عند الأفريقيين بكميات أكبر مما هي عند الأوروبيين أو الآسيويين.

- إذاً فصديقي عبدو يصنع كثيراً من...

- الميلانين، إنه يعمل كملوِّن.

- إذاً فهو يصنع من الميلانين أكثر مني. أعرف أيضاً أن دمنا جميعاً أحمر، ولكن عندما كانت أمي بحاجة للدم قال الطبيب إن زمرتك مختلفة.

- نعم، يوجد أربع زمر دموية: O , AB, B, A .

الزمرة O هي معطي عام والزمرة AB متلقي عام. وليس لهذا الأمر علاقة بمسألة الفوقية أو الدونية. توجد الاختلافات في الثقافة (اللغة والعادات والطقوس والمأكل الخ). تذكَّري أن تام، الصديقة الڤيتنامية لوالدتك، هي التي أعطتها الدم في حين أن أمك مغربية. إن زمرتهما الدموية واحدة، ومع ذلك فهما من ثقافات مختلفة جداً وليس لهما لون البشرة ذاته.

ـ إذاً إذا احتاج صديقي الماليّ عبدو يوماً ما إلى الدم أستطيع أن أقدمه له؟

ـ نعم إذا كنتما تنتميان إلى الزمرة الدموية ذاتها.

ـ من هو العنصري؟

ـ العنصري هو من يظن نفسه أفضل ولنقل متفوق على من يختلف عنه بحجة أنه لايملك لون البشرة ذاته ولا اللغة ذاتها ولاطريقة الاحتفال ذاتها. وهو يثابر على الاعتقاد بوجود عدة أعراق ويقول لنفسه: «عِرقي جميل ونبيل، والأعراق الأخرى بشعة وحيوانية».

ـ ألا يوجد عِرق أفضل؟

ـ كلا، لقد حاول بعض المؤرخين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن يثبتوا وجود عِرق أبيض أفضل على المستوى الفيزيائي من عِرق أسود مزعوم. في ذلك الوقت كان هناك اعتقاد بأن الإنسانية تنقسم إلى عدة أعراق. وقد ذكر أحد المؤرخين، وهو أرنست رينان (1823 ـ 1892)، المجموعات الإنسانية التي تنتمي إلى «العِرق الأدنى»: سود أفريقيا وسكان أستراليا الأصليون وهنود أميركا. وهو يعتبر أن «منزلة الأسْوَدْ من الإنسان كمنزلة الحمار من الحصان» أي أنه «رجل ينقصه الذكاء والجمال»! ولكن وكما يقول أحد أساتذة الطب المختصين بالدم «لاتوجد الأعراق الصافية في عالم الحيوان إلا بالحالة التجريبية، أي في المخبر، مع الفئران على سبيل المثال». ويقول «إنه يوجد بين الصيني والمالي والفرنسي اختلافات اجتماعية ثقافية أكثر مما يوجد اختلافات وراثية».

ـ ماهي الاختلافات الثقافية الاجتماعية؟

ـ الاختلافات الثقافية الاجتماعية هي تلك التي تميِّز مجموعة إنسانية عن أخرى من خلال الطريقة

التي ينتظم الناس بوساطتها في المجتمع (لاتنسي أن لكل مجموعة إنسانية تقاليدها وعاداتها) ومايبدعونه من نتاجات ثقافية (الموسيقى الأفريقية تختلف عن الموسيقى الأوروبية). إن ثقافة مجموعة تختلف عن ثقافة الأخرى. وينطبق الأمر ذاته فيما يتعلق بطريقة الزواج والاحتفال الخ...

ـ وماهو علم الوراثة؟

ـ كلمة «علم الوراثة» تشير إلى المورِّثات أي العناصر المسؤولة عن العامل الوراثي في جسمنا. والمورِّث «gene» هو وحدة وراثية. هل تعلمين ماهي الوراثة؟ هي كل ماينقله الأهل إلى أولادهم من الخصائص الفيزيائية والنفسية. إن التشابه الفيزيائي وبعض ملامح طباع الأهل التي نجدها عند أطفالهم تفسرها الوراثة.

ـ إذاً فنحن نختلف بتربيتنا أكثر مما نختلف بمورِّثاتنا؟

ـ على أية حال كلنا مختلفون، أحدنا عن الآخر. بكل بساطة يمتلك بعض منا ملامح وراثية مشتركة، وهم بشكل عام يجتمعون مابينهم فتتشكل مجموعة سكانية تختلف عن مجموعة أخرى

بطريقة عيشها. يوجد العديد من المجموعات الإنسانية التي تختلف عن بعضها بلون البشرة والشعر وملامح الوجه والثقافة أيضاً، وعندما يمتزجون عن طريق التزاوج يولد أطفال ندعوهم «المولّدين»، والمولّدون جميلون عموماً. إن المزيج هو الذي ينتج الجمال. والتهجين سدٌّ قوي في وجه العنصرية.

- إذا كنا جميعاً مختلفين فهذا يعني أنه لاوجود للتشابه...

- كل كائن إنساني هو كائن فريد. من بين كل الناس، لايوجد كائنان إنسانيان متماثلان تماماً. حتى التوائم الحقيقية تبقى مختلفة. إن خصوصية الإنسان هي في كونه يحمل هوية لاتحدَّد سواه. إنه فريد، غير قابل للاستبدال. بالتأكيد نستطيع أن نستبدل موظف بموظف آخر ولكن الإنتاجية ذاتها مستحيلة. كل منا يستطيع أن يقول لنفسه: «لست مثل الآخرين» وسيكون على حق. أن يقول أحدنا: «أنا فريد» لايعني أنه الأفضل. إنه ببساطة يسجل أن كل كائن إنساني فريد. بطريقة أخرى، إن كل وجه هو معجزة وحيدة لاتقبل التقليد.

- وأنا أيضاً؟

ـ بالتأكيد، أنت فريدة مثلما عبدو فريد وسيلين فريدة. لايوجد على الأرض بصمتان تتماثلان تماماً. لكل إصبع بصمته الخاصة. لذلك يبدؤون في الأفلام البوليسية برفع البصمات عن الأشياء للتعرف إلى الأشخاص الذين كانوا موجودين في أماكن الجريمة.

ـ ولكن يا أبي لقد عرضوا على التلفاز منذ أيام نعجة صنعوا منها نسختين!

ـ تريدين التحدث عما يدعى الاستنساخ أي إنتاج مايريدون من النسخ عن شيء ما. هذا ممكن مع الأشياء، لأن الآلات التي تصنعها تعيد إنتاج الشيء ذاته بصورة مماثلة. ولكن يجب ألا نقوم به مع الحيوانات ولا مع الانسان إطلاقاً.

ـ أنتَ على حق، لاأحب رؤية اثنتين من سيلين في صفي، تكفيني واحدة.

ـ هل تدركين أن التمكّن من استنساخ الكائنات الإنسانية مثلما يحدث مع النسخ المصورة، قد يؤدي إلى السيطرة على العالم وتقرير الإكثار من بعضهم وحذف بعضهم الآخر. إنه أمر مرعب.

ـ هذا يخيفني... حتى صديقتي المفضلة لاأحب أن يكون لها قرينة.

ـ ثم إن السماح بالاستنساخ قد يستغلّه بعض الرجال الخطرين لمصلحتهم، على سبيل المثال من أجل الاستيلاء على السلطة وسحق الضعفاء. من حسن الحظ أن الكائن الإنساني فريد ولايتكاثر بشكل مماثل. ولأنني غير متماثل مع جاري ولا مع أخي التوأم، ولأننا جميعاً مختلفون أحدنا عن الآخر، نستطيع أن نقول وندرك بأن «الغِنى في الاختلاف».

ـ إذا فهمت جيداً، يخاف العنصري من الأجنبي لأنه جاهل، وهو يعتقد بوجود عدة أعراق ويعتبر أن عرقه هو الأفضل؟

ـ نعم يا ابنتي ولكن هذا ليس كل شيء. لقد نسيتِ العنف وإرادة السيطرة على الآخرين.

ـ العنصري هو شخص يخطئ.

ـ العنصريون مقتنعون بأن المجموعة التي ينتمون إليها، والتي قد يحددها الدين أوالبلد أو اللغة أو كلها معاً، متفوقة على المجموعة المقابلة.

ـ ولكن ما الذي يجعلهم يشعرون بأنهم متفوقون؟

ـ إنه الاعتقاد وتشجيع الاعتقاد بوجود تفاوتات طبيعية ذات طابع فيزيائي أي ظاهرة، أو ذات طبيعة ثقافية، مما يعطيهم شعوراً بالتفوق على الآخرين. هكذا يلجأ بعضهم إلى الدين لتسويغ سلوكهم أو شعورهم. ولابد من القول إن كل ديانة تعتقد أنها الأفضل للجميع وتميل إلى الادعاء بأن الذين لايتبعونها يسلكون طريقاً خاطئاً.

ـ هل تقصد أن الديانات عنصرية؟

ـ كلا الديانات ليست عنصرية ولكن مايفعله بها الرجال أحياناً يكون مستنداً إلى العنصرية. في عام 1095 أطلق البابا أوربان الثاني «Urbain II» انطلاقاً من مدينة كليرمون ـ فران حرباً ضد المسلمين الذين اعتُبِروا كفرة. فانطلق آلاف من المسيحيين إلى بلاد الشرق يذبحون العرب والأتراك. وقد أخذت هذه الحرب، التي أُعلنت باسم الله، اسم «الحروب الصليبية». (الصليب كرمزٍ للمسيحيين في مقابل الهلال كرمز للمسلمين).

لقد طَرَدَ مسيحيو إسبانيا مابين القرنين

الحادي عشر والرابع عشر المسلمين ثم اليهود متذرعين بأسباب دينية.

هكذا يستند بعضهم إلى الكتب المقدسة لتسويغ ميلهم إلى إدعاء التفوق على الآخرين. والحروب الدينية كثيرة.

- ولكنك قلت لي يوماً إن القرآن ضد العنصرية.

- نعم، القرآن وكذلك التوراة أو الكتاب المقدس؛ كل الكتب المقدسة ضد العنصرية يقول القرآن إن كل الرجال متساوون أمام الله وإنهم يختلفون بشدة إيمانهم.

وقد كُتب في التوراة: «... إذا جاء أجنبي ليقيم معك، لاتزعجه أبداً سيكون بالنسبة لك كأحد مواطنيك... وستحبه كما تحب نفسك». يشدد الكتاب المقدس على احترام القريب، أي كل كائن إنساني آخر سواء كان جارك أم أخاك أم أجنبياً. وفي العهد الجديد قيل: «آمركم بأن تحبوا بعضكم بعضاً». و«ستحب قريبك كما تحب نفسك». كل الديانات تبشر بالسلام بين الناس.

- وإذا كنا لانؤمن بالله؟ أقول هذا لأنني

أتساءل أحياناً ماإذا كان الجحيم والفردوس يوجدان فعلاً...

ـ إذا لم نكن مؤمنين نظر إلينا المتدينون بشكل سيء، سيء جداً، حتى أننا نصبح أعداءً للأكثر تعصباً بينهم.

ـ منذ أيام، عندما حدثت بعض الاعتداءات اتُّهم أحد الصحافيين الإسلام على التلفاز. هل ترى أنه كان صحافياً عنصرياً؟

ـ لا ليس عنصرياً، إنه جاهل وغير كفؤ. هذا الصحافي يخلط بين الإسلام والسياسة. إن الذين يستخدمون الإسلام في صراعاتهم رجال سياسة ندعوهم بالأصوليين.

ـ وهل هم عنصريون؟

ـ الأصوليون متعصبون. المتعصب هو الذي يعتقد أنه الوحيد الذي يمتلك الحقيقة. غالباً مايتماشى التعصب والدين. فالأصوليون يوجدون في غالبية الأديان. يعتقدون أنهم ملْهَمون من قبل الروح الإلهية. إنهم عميان متحمسون يريدون فرض قناعاتهم على الآخرين، وهم خطرون لأنهم لايقيمون وزناً لحياة الآخرين. إنهم مستعدون

باسم إلههم للقتل وحتى الموت، والكثير منهم يستخدمهم زعيم وهم بالتأكيد عنصريون.

ـ إنهم كالناس الذين ينتخبون لوبن «Le Pen»؟

ـ لوبن «Le Pen» يدير حزباً سياسياً مؤسَّساً على العنصرية، أي كراهية الأجنبي والمهاجر وكراهية المسلمين واليهود الخ...

ـ إنه حزب الكراهية!

ـ نعم ولكن قد لايكون كل الذين ينتخبون لوبن عنصريين... أتساءل عن ذلك وإلا فهناك أربعة ملايين عنصري في فرنسا! هذا كثير! هناك من يضلّلهم أو أنهم لايريدون أن يروا الحقيقة. بانتخاب لوبن يعبرّ بعضهم عن قلق ولكنهم يخطئون اختيار الوسيلة.

ـ قل لي ياأبي، ماالمطلوب حتى لايكون الناس عنصريين؟

ـ كما يقول الجنرال ديغول «برنامج واسع». من الأسهل بكثير إحلال الكراهية مكان الحب. من الأسهل بكثير أن نحذر وألا نحب، من أن نحب أحداً لانعرفه. إنه دائماً ذاك الميل العفوي والدافع

المعروف الذي تحدثنا عنه منذ قليل والذي يعبّر عن الرفض والرد.

ـ ماهو الرفض «Refus» والرد «Rejet»؟

ـ إنه إغلاق الباب والشبابيك. إذا طرق الأجنبي الباب لانفتح له. وإذا أصرَّ فتحنا له ولكن دون أن نسمح له بالبقاء، ونُفهمه أن من الأفضل له الذهاب إلى مكان آخر، أي أننا نردُّه.

ـ وهذا يولِّد الكراهية؟

ـ هذا هو الحذر الطبيعي الذي يبديه بعض الأشخاص تجاه بعضهم الآخر. الكراهية شعور أخطر وأعمق لأنه يفترض ضده، أي الحب.

ـ لاأفهم عن أي حب تتحدث؟

ـ عن حبنا لأنفسنا.

ـ وهل يوجد أناس لايحبون أنفسهم؟

ـ عندما لانحب أنفسنا لانحب أحداً. إنه كالمرض. إنه البؤس. وغالباً مايحب العنصري نفسه لدرجة أنه لايترك مكاناً للآخرين، من هنا أنانيته.

ـ إذاً العنصري أنانيٌّ لايحب أحداً. لابد أنه بائس. فهذا جحيم!

ـ نعم، العنصري هو الجحيم.

ـ ذلك اليوم كنتَ تتحدث مع عمّي عندما قلت إن «الجحيم هو الآخرون» فماذا يعني هذا القول؟

ـ ليس للأمر علاقة بالعنصرية. إنه تعبير نستخدمه عندما نكون مجبرين على تحمل أشخاص لانرغب بالعيش معهم.

ـ إنه كالعنصرية.

ـ كلا، ليس تماماً، فالأمر لايتعلق بأن نحب كل الناس. إذا اجتاح أحدهم غرفتك، فلنقل ابن عمك المشاغِب، ومزّق دفاترك ومنعك من اللعب لوحدك، فلن تكوني عنصرية عندما تطردينه من غرفتك. وبالمقابل إذا أتى أحد رفاقك في الصف كعبدو الماليّ لزيارتك في غرفتك وتصرف بشكل لائق وطردته لمجرد أنه أسود فهنا تكونين عنصرية. هل تفهمين؟

ـ موافقة، ولكن «الجحيم هو الآخرون» لم أفهمها جيداً.

ـ إنه ردٌّ مأخوذ من مسرحية لجان بول

سارتر «J.P.Sartre» تدعى جلسة مغلقة «Huis clos».
حيث يوجد ثلاث شخصيات في غرفة جميلة بعد موتهم وإلى الأبد، عليهم العيش معاً ولايملكون أية وسيلة للخلاص. إنه الجحيم. من هنا تعبير «الجحيم هو الآخرون».

ـ لاعلاقة للأمر هنا بالعنصرية. يحق لي ألا أحب كل الناس. ولكن كيف لي أن أعرف عندما لايتعلق الأمر بالعنصرية؟

ـ لايستطيع الإنسان أن يحب كل العالم بشكل مطلق. وإذا كان مجبراً على العيش مع أناس لم يخترهم فقد يحيا الجحيم ويجد لهم نواقص مما قد يقرّبه من العنصري. ومن أجل تسويغ رفضه يتذرع العنصري بخصائص فيزيائية فيقول: لم أعد أستطيع تحمّل فلان لأن أنفه أفطس أو لأن شعره أجعد أو عينيه مشدودتان الخ. إليكِ مايعتقده العنصري في قرارة نفسه: «لايهم أن أعرف المساوئ والفضائل الفردية لشخص ما. يكفيني أن أعرف أنه ينتمي إلى جماعة محددة لكي أرفضه». إنه يستند إلى ملامح فيزيائية أو نفسانية لتعليل رفضه.

ـ أعطني أمثلة.

ـ سيقال «إن السود أقوياء لكنهم كسولون وجشعون وقذرون». و«إن الصينيين قصارَ القامة، أنانيون وعنيفون» و«إن العرب ماكرون وعدوانيون وخونة». سيقال «إنه عمل عربي» لوصف عمل لم ينجز بشكل جيد، و«إن الأتراك أقوياء وعنيفون»، وسينعتون اليهود بأسوأ العيوب الفيزيائية والمعنوية من أجل محاولة تسويغ ملاحقاتهم... والأمثلة تفيض. وبعض السود سيقولون إن البيض لهم رائحة غريبة، وسيقول الآسيويون إن السود متوحشون، الخ. يجب حذف هذه التعابير الجاهزة من مفرداتك من مثل «رأس تركي» أو «عمل عربي» أو «ضحكة صفراء» أو «كدَّ مثل زنجي» الخ. إنها حماقات يجب محاربتها.

ـ وكيف محاربتها؟

ـ أولاً يجب أن نتعلم أن نحترم. إن الاحترام أساسي. ثم إن الناس لايطلبون أن نحبهم وإنما أن نحترمهم في كرامتهم الإنسانية. الاحترام هو أن يكون للفرد مراعاة واعتبار وأن نجيد الاستماع. لايطلب الأجنبي محبة وصداقة وإنما يطلب الاحترام. يمكن للمحبة والصداقة أن تولد فيما بعد، بعد تبادل التعارف أكثر وتبادل التقدير. ولكن علينا أولاً ألّا نتخذ أي موقف مقرَّرٍ بشكل مسبق،

أي دون أحكام مسبقة. إن العنصرية تنمو بفضل أفكار جاهزة عن الشعوب وثقافتهم. سأعطيكِ مثالاً آخر عن التعميمات الحمقاء: الاسكوتلانديون بخلاء، البلجيكيون قليلو الخبث، الغجر لصوص، الآسيويون ماكرون. إن كل تعميم غبي هو سبب للخطأ. لذلك يجب ألا نقول أبداً إن العرب كذا وكذا وإن الفرنسيين هكذا وهكذا. فالعنصري هو من يعمم انطلاقاً من حالة خاصة. إذا سرقه عربي استنتج من ذلك أن العرب لصوص. أن نهتم للعدالة يعني أن نحترم الآخر.

- ولكننا نستطيع أن نروي قصصاً عن البلجيكيين دون أن نكون عنصريين!

- حتى نستطيع أن نسخر من الآخر يجب أن نكون قادرين على السخرية من أنفسنا وإلا فنحن لانمتلك حس الفكاهة. الفكاهة قوة.

- ماهي الفكاهة، هل هي الضحك؟

- إن امتلاك حس الفكاهة يعني أن نعرف كيف نمزح وألّا نأخذ أنفسنا محمل الجد، أن نعرف كيف نُبرز في كل شيء الجانب الذي يؤدي إلى الضحك والابتسام. لقد قال أحد الشعراء: «الفكاهة هي أدب اليأس».

ـ وهل يمتلك العنصريون حس المزاج «Sens de Lhumeur» أقصد حس الفكاهة «Lhumour».»

ـ إنها زلة جيدة. في الماضي كانت كلمة «humeur» المزاج تستخدم للتحدث عن الفكاهة «humour». كلا، لايمتلك العنصريون حس الفكاهة، أما فيما يتعلق بمزاجهم فهو غالباً شرير. لايعرفون كيف يسخرون من الآخرين إلا بخبث مُظهرين عيوبهم وكأنهم لايمتلكون منها. عندما يضحك العنصري فلكي يُظهر تفوقه المزعوم. في الحقيقة مايُظهره هو جهله ودرجة حماقته وإرادته في الأذى. وهو يستخدم من أجل تسمية الآخرين تعابير بشعة ومهينة. فهو يدعو العربي، على سبيل المثال، بالفأر الصغير أو الجدي أو البطيخة، والإيطالي بالريتال «Le rital» أو المعكرونة، واليهودي باليوبين «Youpin»، والأسود بالزنجي.

ـ عندما نكون حمقى نكون عنصريين؟

ـ كلا، عندما نكون عنصريين نكون حمقى.

ـ إذاً لخّصتُ جيداً أستطيع أن أقول إن العنصرية تأتي من 1) الخوف، 2) الجهل، 3) الغباء؟

ـ أنتِ على حق، يجب أن تعرفي أيضاً مايلي: نستطيع أن نمتلك المعرفة ونستخدمها لتسويغ العنصرية. يمكن استخدام الذكاء لخدمة هدف سيء. إذاً ليس الأمر بهذه البساطة.

ـ وكيف ذلك؟

ـ أحياناً قد يُحمِّل أناس متعلمون ومثقفون، على أثر مصيبة ما، كالبطالة مثلاً، الأجانب مسؤولية وضعهم. وهم يعرفون في قرارة أنفسهم ألا علاقة للأجانب بالأمر، ولكنهم بحاجة إلى إسقاط غضبهم على أحد ما. وهذا ماندعوه «كبش الفداء».

ـ ماهو كبش الفداء؟

ـ منذ أمد بعيد اختار شعبُ إسرائيل كبشاً حمّلوه رمزياً كل خطاياهم وتركوه في الصحراء. عندما نريد إسقاط أخطائنا على أحد ما نختار كبش فداء. في فرنسا يروّج العنصريون للاعتقاد بأن سبب الأزمة الاقتصادية هو الأجانب، ويتهمونهم بأخذ عمل الفرنسيين وخبزهم. هكذا ألصق الحزب المدعو بالجبهة

الوطنية[1] «Le Front National»، وهو حزب عنصري، ملصقات على كل جدران فرنسا كتب عليها: «ثلاثة ملايين عاطل عن العمل = ثلاثة ملايين مهاجر زيادة». تعلمين أن واحداً من كل خمسة مواطنين في فرنسا من أصل أجنبي!

ـ ولكن المهاجرين متأثرين أيضاً بالبطالة! فوالد سعاد، ابنة عم والدتي، لايجد عملاً منذ سنتين. إنه يبحث ولايجد. أحياناً عندما يتصل من أجل عمل ما يجيبونه بالموافقة، وعندما يتقدم للعمل يقولون له تأخرت كثيراً!

ـ أنتِ على حق. ولكن العنصريين يكذبون. يروون أي شيء دون أن يهتموا للحقيقة. مايريدونه هو ضرب المخيّلات بالشعارات. لقد أظهرت دراسات اقتصادية أن هذه المعادلة «ثلاثة ملايين عاطل عن العمل = ثلاثة ملايين مهاجر فوق الحد» خاطئة تماماً. ولكن أحد سيئي الحظ مستعدّ،

---

(1) حزب الجبهة الوطنية تأسس في عام 1972 ويترأسه جان ماري لوبن وهو حزب يميني متطرف يحارب الاشتراكية بكل أشكالها ويدعو إلى اعتماد قوانين متشددة وإقرار عقوبة الاعدام وإيقاف الهجرة ورد المهاجرين إلى بلادهم.

لأنه عاطل عنِ العمل، لتصديق أية حماقة تهدئ غضبه.

ـ إن اتهام المهاجرين لن يوفر له عملاً!

ـ نعم، بالطبع، نجد هنا الخوف من الأجنبي الذي نحمّله الشرور والآثام. هذا أسهل. العنصري هو شخص يمارس سوء النية.

ـ سوء النية؟

ـ أعطيك مثالاً: يأخذ طالب أجنبي علامات سيئة في الصف، وبدل أن يلوم نفسه لأنه لم يعمل بشكل كاف، يدّعي بأنه أخذ علامات سيئة لأن مدرِّسَته عنصرية.

ـ مثل ابنة عمي ناديا. لقد حَصَلتْ على تنبيه لأنها قالت لأهلها إن الأساتذة لايحبون العرب! إنها متكبّرة، أعرف أنها طالبة سيئة.

ـ هذا هو سوء النية!

ـ ولكن ناديا ليست عنصرية...

ـ إنها تستخدم حجة حمقاء من أجل التنصّل من المسؤولية، وهذا يشبه طريقة العنصريين.

ـ إذاً يجب إضافة سوء النية إلى الخوف والجهل والحماقة.

- نعم، إذا كنتُ أشرح لك اليوم كيف يصبح المرء عنصرياً فلأن العنصرية تأخذ أحياناً أبعاداً مأساوية. فيتجاوز الأمر مجرد كونه مسألة حذر أو غيرة من أشخاص ينتمون إلى فئة ما. لقد شهدنا في الماضي إخضاع شعب بكامله لقانون العنصرية والإبادة.

- ماهي الإبادة؟ لابد أنها أمر فظيع!

- إنها العمل على إزالة فئة أو مجموعة ما بطريقة جذرية ونهائية.

- كيف؟ هل يقتلون كل الناس؟

- هذا ماحدث أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما قرر هتلر زعيم ألمانيا النازية إنهاء اليهود والغجر من على الكوكب (أما فيما يخص العرب فقد نعتهم هتلر بالعرق الأخير بعد الضفادع!). لقد نجح في حرق وتسميم خمسة ملايين يهودي بالغاز[1]،

---

(1) إن الرقم الذي يعتمده الكاتب مغالى فيه بشدة، وهو رقم روّجته الصهيونية العالمية واسرائيل العنصرية طلباً للابتزاز المادي الذي مازالت المانيا تدفعه تكفيراً، في حين أن الرقم الحقيقي لايتجاوز المليون ومئتي ألف، خاصة وأن عدد اليهود في أوروبا لايتجاوز الثلاثة ملايين في ذلك الوقت. كما أن ←

وهذا مايُدعى إبادة جماعية. في الأساس هناك قاعدة عنصرية تقول: «بما أن اليهود يُعتبرون أناساً ينتمون إلى عرق غير صاف أي أدنى فلا حق لهم بالحياة. يجب إبادتهم أي حذفهم حتى آخر واحد منهم». وكان على حكومات أوروبا التي يوجد يهود بين مواطنيها أن تعلن عنهم وتسلمهم للنازيين. وكان على اليهود أن يحملوا نجمة صفراء على كتفهم من أجل التعرف إليهم. وقد أُعطي هذا النوع من العنصرية اسم معاداة السامية «Antisemitisme».

ـ من أين تأتي هذه الكلمة؟

ـ إنها تأتي من مصطلح «سامي» الذي يشير إلى مجموعات من آسيا الغربية تتحدث لغات قريبة كالعبرية والعربية. وهكذا فالعرب واليهود ساميون.

← استخدام غرف الغاز أمر مشكوك فيه إذ لم تُقدّم وثائق كافية تشير إلى استخدامها.
يمكن في هذا الصدد مراجعة كتاب روجيه غارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية» وكذلك قضية الاستاذ روبير فوريسون أستاذ الآداب في جامعة ليون الذي قاضته المنظمات الصهيونية بين عامي 1981 ـ 1983 لأنه يعتبر غرف الغاز أكاذيب صهيونية ـ المترجم .

ـ إذاً عندما نكون معادين للسامية نكون أيضاً معادين للعرب؟

ـ بشكل عام، عندما نتحدث عن معاداة السامية نشير إلى العنصرية المعادية لليهود. إنها عنصرية خاصة بما أنه خُطِّط لها وفُكِّر فيها ببرود بحيث يُقتل كل اليهود. من أجل الإجابة بشكل مباشر أكثر على سؤالكِ أقول إن المعادي لليهود يكون أيضاً معادياً للعرب. على أية حال، العنصري هو الذي لايحب الآخرين سواء كانوا يهوداً أم عرباً أو سوداً. لو ربح هتلر الحرب لهاجم كل الإنسانية تقريباً لأن العرق الصافي لايوجد. إنها تفاهة مجردة من المعنى. هذا مستحيل. لذلك يجب أن يكون المرء متيقظاً إلى أقصى حد.

ـ هل يمكن أن يكون اليهودي عنصرياً؟

ـ يمكن لليهودي أن يكون عنصرياً مثلما يمكن للعربي والأرمني والغجري وأي رجل ملوّن. لاتوجد مجموعة إنسانية لاتحتوي في وسطها أفراداً قابلين لأن يكون عندهم مشاعر وتصرفات عنصرية.

ـ حتى عندما نخضع للعنصرية؟

ـ إن كون المرء قد عانى من الظلم لايجعله

عادلاً بالضرورةِ، كذلك الأمر بالنسبة للعنصرية. إن الرجل الذي كان ضحية للعنصرية قد يستسلم في بعض الحالات للإغراء العنصري.

ـ اشرح لي ماهي الإبادة الشاملة.

ـ إنه التدمير المنظَّم والمنهجي لمجموعة إثنية. يقرر أحد الأقوياء المجانين وببرود أن يقتل بكل الوسائل كل الأشخاص الذين ينتمون إلى مجموعة إنسانية ما. بشكل عام إن الأقليات الإثنية هي المستهدفة غالباً بهذا النوع من القرار.

ـ أيضاً كلمة لاأعرفها؟ ماهي الإثنية؟

ـ إنها مجموعة من الأفراد الذين يشتركون في اللغة والعادات والتقاليد والحضارة التي ينقلونها من جيل إلى جيل. إنه شعب يُعرف بهوية محددة ويمكن للأفراد الذين يشكلونه أن يتفرقوا في عدة بلدان.

ـ أعطني أمثلة.

ـ اليهود والبربر والأرمن والغجر والكلدانيون الذين يتحدثون بالآرامية لغة المسيح الخ.

ـ أي أننا قد نتعرض للإبادة عندما نكون قلة؟

- يُظهر التاريخ أنه غالباً ماتم ملاحقة الأقليّات. وإذا أخذنا هذا القرن فقط منذ 1915 فإن الأرمن الذين كانوا يعيشون في القرى الشرقية للأناضول لوحقوا وذبحوا من قبل الأتراك (أكثر من مليون قتيل في شعب عدده الكلي مليون وثمانمئة ألف شخص). ثم هناك اليهود الذين ذُبحوا في روسيا وبولونيا، دعيت هذه المذابح «Pogroms». وبعد ذلك تماماً قُتل أكثر من خمسة ملايين يهودي على يد النازيين في أوروبا في معسكرات الاعتقال. منذ 1933 اعتبر النازيون اليهود «عرقاً سلبياً» أو «تحت عرق». كما أعلنوا أن الغجر أدنى عرقياً وارتكبوا المجازر بحقهم (مئتي ألف قتيل).

- لقد كان هذا منذ أمد بعيد. والآن؟

- تتتابع مذابح الأقليات. فمؤخراً في عام 1995 ذبح الصرب باسم مايدعونه التطهير العرقي البوسنيين المسلمين بالآلاف.

وفي رواندا ذبح الهوتو التوتسي، وهم أقلية مفضلة من قبل الأوربيين ومعادية للهوتو. إنهما إثنيتان تتحاربان منذ أن استعمر البلجيكيون منطقة البحيرات الكبرى في هذا البلد. إن الاستعمار الذي

سنعود للتحدث عنه غالباً ماكان يقسّم الشعوب لكي يحكم. لقد كان هذا القرن يا ابنتي غنياً بالمذابح والآلام.

ـ وفي المغرب ألا يوجد يهود؟ أعلم أنه يوجد فيه بربر، بما أن أمي بربرية.

ـ لقد تعايش اليهود والمسلمون في المغرب حوالى أحد عشر قرناً معاً. كان لليهود أحياؤهم التي تدعى (ملّة). ماكانوا يختلطون مع المسلمين ولكنهم كانوا لايختلفون معهم، كان بينهم بعض الحذر ولكن كان هناك احترام أيضاً. الأكثر أهمية هو أنه بينما كان اليهود يُذبحون في أوروبا كانوا محميين في المغرب. أثناء احتلال ألمانيا لفرنسا رفض ملك المغرب محمد الخامس تسليمهم للمارشال بيتان «Petain»، الذي كان يطالب بهم لكي يرسلهم إلى معسكرات الاعتقال النازية، أي إلى الجحيم. لقد حماهم الملك وأجاب بيتان: «إنهم رعاياي، إنهم مواطنون مغاربة، وهم هنا في وطنهم آمنون وأتعهد بحمايتهم». إن اليهود المغاربة الذين تفرقوا في العالم يحبونه كثيراً. وقد بقي اليوم بضعة آلاف من اليهود في المغرب،

وهؤلاء الذين غادروه يحبّون العودة إليه. إنه البلد العربي المسلم الذي يوجد على أرضه أكبر عدد من اليهود. هل تعلمين ماذا يطلق اليهود المغاربة على مدينة صِفرو وهي مدينة صغيرة جنوب فاس، إنهم يدعونها (أورشليم الصغيرة).

ـ ولكن لماذا ذهبوا؟

ـ عندما أصبح المغرب مستقلاً في عام 1956 خافوا لأنهم لايعرفون ماسيحدث. وقد حثّهم بعض اليهود الذين كانوا قد استقروا في إسرائيل على الانضمام إليهم. ثم دفعتهم حروب 1967 و 1973 بين إسرائيل والدول العربية لأن يقرروا ترك بلدهم الأم، لكي يذهبوا إما إلى إسرائيل أو إلى أوروبا أو إلى أميركا الشمالية. ولكن المسلمين المغاربة يأسفون لهذه المغادرات لأن اليهود والمسلمين عاشوا بسلام خلال أكثر من ألف عام. يوجد أغانٍ وأشعار ألّفها يهود ومسلمون باللغة العربية وهذا دليل على التفاهم الجيّد بين الجماعتين.

ـ إذاً المغربيون ليسوا عنصريين!

ـ ليس لهذا التأكيد أي معنى، لايوجد شعب عنصري أو غير عنصري بمجمله. والمغربيون

ككل الناس يُصادَف بينهم أناس عنصريون وآخرون لاعنصريين.

- هل يحبون الأجانب؟

- إنهم معروفون بتقاليدهم في الضيافة، يحبون استقبال الأجانب العابرين، ليُروهم البلد، ويقدمون لهم المأكولات ليتذوقوها. منذ القديم والعائلات المغربية مضيافة والأمر ذاته ينسحب على المغاربة الآخرين وعرب الصحراء والبدو والرحّل... إلخ. ولكنّ بعض المغربيين يسلكون سلوكاً مرفوضاً خاصة مع السود.

- لماذا مع السود؟

- لأن التجار المغربيين كانوا في العصور القديمة يذهبون للتجارة في أفريقيا. كانوا يتاجرون مع السنغال ومالي والسودان وغينيا، وكان بعضهم يُحضر معه نساءً زنجيات. وغالباً ماكان الأطفال الذين يولدون منها، يعاملون بشكل سيء، من قبل الزوجة البيضاء وأطفالها. كان لعمي زوجتين زنجيتين، وكان لي أولاد عم سود وأتذكر أنهم ماكانوا يأكلون معنا، وقد تعودنا أن نسمي الزنوج عبيداً.

وقبل المغربيين بكثير كان أوروبيون بيض

يعتبرون الزنجي «حيوان على حدة مثل القرد» بوفون Buffon (1707 ـ 1788) . ومع ذلك كان هذا الرجل العالِم يقول أيضاً: «الزنوج دونيّون ومن الطبيعي أن يخضعوا للاستعباد». لقد أُلغي الاستعباد من كل العالم تقريباً ولكنه يوجد بأشكال مقنّعة هنا وهناك.

ـ مثلما في ذلك الفيلم الأميركي حيث يجلد السيد الأبيض السود...

ـ يتحدر السود الأميركيون من عبيد أتى بهم من أفريقيا[1] المهاجرون الأوائل الذين استقروا في أميركا. الاستعباد هو حق الملكية مطبّقاً على كائن إنساني. والعبد مجرَّدٌ تماماً من الحرية. إنه يعود روحاً وجسداً إلى من اشتراه. وقد كانت العنصرية ضد السود شديدة في أميركا ومازالت. وقد خاض السود مجابهات مخيفة من أجل الحصول على حقوقهم.

قبل ذلك لم يكن يحق للسود في بعض الولايات

---

(1) يصل عدد الأفريقيين الذين نقلوا إلى أميركا إلى عشرين مليون، أما الذين قتلوا أثناء عمليات الأسر فأكبر من ذلك بكثير. بدأت هذه العملية بحسب بعض المصادر في عام 1562 واستمرت حوالى أربعة قرون ـ المترجم .

أن يسبحوا في ذات المسبح مع البيض، ولا أن يستخدموا المراحيض ذاتها التي يستخدمها البيض، ولا أن يُدفنوا في مقبرة البيض ذاتها، ولا أن يصعدوا في الباص ذاته أو يرتادوا المدارس التي يرتادها البيض ذاتها. في عام 1957 ، في مدينة ليتل روك «Little Rock» وهي مدينة صغيرة في جنوب الولايات المتحدة، كان لابد من تدخل الرئيس إيزنهاور والشرطة والجيش لكي يتمكن تسعة أطفال سود من دخول المدرسة المركزية العليا «Central High School» وهي مدرسة للبيض... إن الكفاح من أجل حقوق السود لم يتوقف رغم اغتيال أحد كبار مطلقي هذا الكفاح في 1968 في أطلنطا وهو مارتن لوثر كينغ. أما اليوم فقد بدأت الأمور تتغير. مثلما هو الأمر في جنوب أفريقيا الجنوبية حيث كان السود والبيض يعيشون منفصلين. إنه مايدعى «Apartheid» أي التمييز العنصري[1]. كان هناك

---

(1) إن تهويد القدس وفصل السكان العرب عن اليهود ونفي الفلسطينيين العرب هي أشكال للتمييز العنصري Apartheid .
وقد أدان المجتمع الدولي في عام 1973 التحالف بين العنصرية في جنوب أفريقيا والصهيونية في اسرائيل واعتبر اسرائيل ←

تمييز بين الأكثرية السوداء والأقلية البيضاء التي تدير البلاد.

«يجب أن أقول لكِ أيضاً إن السود ككل الناس لهم أيضاً تصرفات عنصرية في مقابل الأشخاص المختلفين عنهم. أن يكونوا غالباً ضحية التمييز العرقي لايمنع بعضاً منهم من أن يكونوا عنصريين».

ـ قلتَ للتو إن الاستعمار يقسّم الناس. ماهو الاستعمار... هل هو عنصرية أيضاً؟

ـ في القرن التاسع عشر احتلت دول أوروبية كفرنسا وانكلترا وبلجيكا وإيطاليا والبرتغال دولاً أفريقية وآسيوية عسكرياً. الاستعمار هو حكم المستعمر الذي يعتبر أن من واجبه كرجل أبيض ومتحضر أن يأتي بالحضارة إلى الأعراق الأدنى. يظن على سبيل المثال أن الأفريقي لمجرد كونه

← دولة عنصرية. يمكن في هذا الشأن مراجعة قرار الجمعية العامة رقم 3151 الصادر في 14 كانون أول 1973 وكذلك التقرير الذي تبنته اللجنة الخاصة بالتمييز العنصري في الأمم المتحدة عن العلاقات بين اسرائيل وجنوب أفريقيا في 19 آب 1976 .
أُلغي القرار المتعلق بعنصرية اسرائيل بعد اتفاقات أوسلو!
ـ المترجم ـ

أسود فهو يمتلك قدرات فكرية أقل من الأبيض. بطريقة أخرى، إنه أقل ذكاء من الأبيض.

ـ المستعمر عنصري!

ـ إنه عنصري ومتحكِّم. عندما يحكمنا بلد آخر نخسر استقلالنا ولانعود أحراراً. هكذا اعتُبِرَتْ الجزائر حتى عام 1962 جزءاً من فرنسا. فاستُغلت ثرواتها وحُرِمَ مواطنوها من حريتهم. لقد نزل الفرنسيون في الجزائر عام 1830 واستولوا على البلد وتمت مطاردة الرافضين لهذه السيطرة وتوقيفهم وحتى قتلهم. الاستعمار عنصرية على مستوى الدولة.

ـ كيف يمكن لبلد أن يكون عنصرياً؟

ـ ليس البلد بكامله، ولكن إذا قررت حكومته بصورة اعتباطية الذهاب لتستقر في أراضٍ لاتمتلكها وبقيت بالقوة فهذا يعني أنها تحتقر سكان هذه الأرض وتعتبر أن ثقافتهم لاتساوي شيئاً وأن عليها أن تقدم لهم ماتدعوه مدنية. وهم بشكل عام يطورون البلد قليلاً، فيبنون بعض الطرقات وبعض المدارس والمشافي، أحياناً ليُظهروا أنهم لم يأتوا من أجل المنفعة فقط، ودائماً لكي يتمكنوا من الاستفادة من البلد أكثر. في

الواقع يطور المستعمر مايساعده على استغلال ثروات البلد. هذا هو الاستعمار. يسعى دائماً للاستيلاء على ثروات جديدة وزيادة سلطته وهذا مالايقوله أبداً. إنه غزو وسرقة وعنف قد يكون لها آثاراً خطيرة على الناس. على سبيل المثال، لقد تطلب الأمر في الجزائر سنوات من النضال والمقاومة والحرب للتخلص من الاستعمار.

- الجزائر حرة...

- نعم إنها دولة مستقلة منذ 1962، أي أن الجزائريين هم الذين يقررون مايفعلونه لبلدهم...

- من 1830 إلى 1962 ، إنه زمن طويل جداً، مئة واثنين وثلاثين سنة!

- كما قال الشاعر الجزائري جان أمروش في 1958:

جرّدوا الجزائريين من كل شيء

من الوطن والاسم

من اللغة وقرارات الحكمة الإلهية

التي تحكم مسيرة الإنسان من المهد إلى اللحد

من الأرض والقمح

من الينابيع والحدائق

من خبز الفم وخبز الروح

[...]

رموا الجزائريين خارج

كل وطن إنساني

جعلوهم أيتاماً

جعلوهم سجناءَ

ماضٍ بلا حاضر وبلا مستقبل

هذا هو الاستعمار، يجتاحون البلد ويجرّدون السكان من أملاكهم وحقوقهم ويزجون الرافضين للاحتلال في السجن ويقودون الرجال القادرين على العمل إلى البلد المستعمر.

ـ ألهذا يوجد كثير من الجزائريين في فرنسا؟

ـ قبل الاستقلال كانت الجزائر مقاطعة فرنسية. لم يكن يوجد جواز سفر جزائري. كان الجزائريون يُعتبرون رعايا الدولة الفرنسية. كان المسيحيون فرنسيين، وأصبح اليهود فرنسيين ابتداء من 1870، أما المسلمون فكانوا يعرفون بالبلديين وهو تعبير يعني «الآتين من بلد يحتله

المستعمر» وهو أحد التعبيرات عن العنصرية في ذلك العهد. هكذا أصبح هذا التعبير يشير إلى السكان المصنَّفين في أسفل السلم الاجتماعي. بَلَديّ = أدنى. عندما كان الجيش الفرنسي أو الصناعات تحتاج إلى رجال كانت تأتي بهم من الجزائر. لم يكونوا يسألون الجزائريين رأيهم ولم يكن للجزائريين حق بجواز سفر وإنما يعطونهم إذن تنقّل. يعطونهم الأوامر فإذا رفضوا تنفيذها يتم توقيفهم ومعاقبتهم. هؤلاء هم المهاجرون الأوائل.

ـ هل كان المهاجرون فرنسيين من قبل؟

ـ لم يُعتبر الأشخاص الذين يؤتى بهم من الجزائر فرنسيين إلا ابتداء من عام 1958 . أما الآتون من تونس والمغرب فلا. وكان هناك من يأتون من تلقاء نفسهم كالبرتغاليين والإسبان والإيطاليين والبولونيين.

ـ إذاً فرنسا كأميركا!

ـ ليس تماماً. كل الأميركيين، باستثناء الهنود وهم سكان القارة الأوائل، مهاجرون قديمون. لقد ارتكب الإسبان ثم الأميركيون البيض المجازر ضد الهنود. عندما اكتشف كريستوف كولومبس العالم

الجديد التقى بهنودٍ، واستغرب كثيراً عندما لاحظ أنهم كائناتَ إنسانية كالأوروبيين. ففي ذلك العصر، أي في القرن الخامس عشر كانوا يتساءلون ما إذا كان للهندي روح. كانوا يتصورونهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى الكائنات الإنسانية!

تتألف أميركا من إثنيات متعددة وعدة مجموعات سكانية أتت من العالم أجمع، في حين أن فرنسا لم تصبح أرض هجرة إلا حوالى نهاية القرن التاسع عشر.

ـ ولكن هل كان هناك عنصرية في فرنسا قبل مجيء المهاجرين؟

ـ توجد العنصرية حيثما يعيش الناس. لايوجد بلد واحد يستطيع أن يدّعي ألّا وجود للعنصرية فيه. تشكل العنصرية جزءاً من تاريخ البشرية. إنها كالداء. من الأفضل معرفته وتعلم كيفية رفضه والتخلص منه. يجب ضبط النفس والتفكير «إذا خفتُ من الأجنبي سيخاف هو أيضاً مني». نحن دائماً أجانب بالنسبة لأحد ما. أن نتعلم العيش معاً، هذه هي مكافحة العنصرية.

ـ أنا لاأريد أن أتعلم العيش مع سيلين فهي شريرة ولصّة وكذابة.

ـ أنت تبالغين، فهذا كثير على صبية واحدة في مثل سنك!

ـ لقد كانت شريرة مع عبدو. لاتريد الجلوس قربه في الصف وتقول أشياء منفّرة عن السود.

ـ لقد نسي أهل سيلين أن يربّوها. وربما هم أيضاً سيئو التربية. ولكن يجب ألا نتصرف معها مثلما تتصرف هي مع عبدو. يجب التحدث معها وأن يُشرح لها لماذا هي مخطئة.

ـ لن أتوصل إلى ذلك لوحدي.

ـ اطلبي من مدرِّستك أن تناقش هذه المسألة في الصف. أنت تعلمين ياابنتي أننا نستطيع التأثير على الطفل أكثر لكي يعدِّل سلوكه. أما عند الأشخاص الكبار فهذا أصعب.

ـ لماذا ياأبي؟

ـ لأن الطفل لايولد والعنصرية في رأسه. غالباً مايكرر الطفل مايقوله أهله الأقارب أو البعيدون. وبالطبيعة يلعب الطفل مع أطفال آخرين. ولايتساءل عن معرفة ما إذا كان طفل ما من لون

مختلف أدنى منه أو متفوق عليه. فهو بالنسبة إليه رفيق لعب قبل كل شيء. قد يتفقان وقد يختلفان. هذا طبيعي. وليس للأمر علاقة بلون البشرة. وبالمقابل إذا حذّره الأهل من الأطفال الملونين ربما يتصرف بشكل مختلف.

ـ ولكنك ياأبي لم تتوقف عن تكرار أن العنصرية شائعة ومنتشرة وأنها جزء من نواقص الإنسان!

ـ نعم، ولكن يجب علينا أن نزرع في الطفل أفكاراً سليمة لكي لايستسلم لغرائزه. نستطيع أيضاً أن نرسخ عنده أفكاراً خاطئة ومسيئة. وهذا يتعلق كثيراً بالتربية وعقلية الأهل. على الطفل أن يصحّح لأهله عندما يطلقون أحكاماً عنصرية. يجب ألا نتردد في التدخل وألا نخجل لأنهم أشخاص كبار.

ـ ماذا يعني هذا؟ نستطيع إنقاذ طفل من العنصرية، أما البالغ فلا...

ـ بشكل أسهل، نعم. هناك قانون يحكم الكائنات بعد أن يكبروا: ألا يتغيروا. قال أحد الفلاسفة منذ وقت بعيد: «كل كائن يميل للاستمرار في كيانه» واسمه سبينوزا. وبشكل شعبي يقال: «لايمكن تغيير خطوط حمار الوحش». بطريقة

أخرى بعد أن نتشكل ينتهي الأمر. وبالمقابل فإن الطفل مستعد ومنفتح أيضاً للتعلم والتشكل. إن البالغ الذي يعتقد بتفاوت الأعراق يصعب إقناعه. الأطفال على العكس يمكن أن يتغيروا. لهذا صُنعت المدرسة، لكي يتعلموا أن الناس يولدون ويبقون متساوين في الحقوق ومختلفين، ولكي يتعلموا أن التنوع الإنساني غنئ لاعائقاً.

- هل يمكن للعنصريين أن يشفوا؟

- هل تعتبرين العنصرية مرضاً!

- نعم لأنه من غير الطبيعي احتقار أحدهم لأن لون بشرته مختلف...

- الشفاء مرتبط بهم. إذا كانوا قادرين على مراجعة أنفسهم.

- وكيف يراجع المرء نفسه.

- يتساءل ويشك ويقول لنفسه «ربما أخطئ إذ أفكر مثلما أفكر» ويبذل جهداً فكرياً من أجل تغيير طريقة تفكيره وسلوكه.

- ولكنك قلت لي إن الناس لايتغيرون.

- نعم ولكننا يمكن أن نعي أخطاءنا ونقبل

تجاوزها. وهذا لايعني أننا نتغير حقاً وبشكل كلّي. إننا نتكيّف. أحياناً، عندما نكون نحن بالذات ضحايا رفض عنصري نتنبَّه إلى أي درجة العنصرية ظالمة وغير مقبولة. يكفي قبول السفر والذهاب لاكتشاف الآخرين حتى ننتبه للأمر. وكما يقال الأسفار تشكل الشباب. السفر هو محبة الاكتشاف والتعلم والانتباه إلى أيّ درجة تختلف الثقافات وكيف هي كلها جميلة وغنية ولايوجد ثقافة متفوقة على ثقافة أخرى.

ـ إذاً هناك أمل...

ـ يجب محاربة العنصرية لأن العنصري هو خطَر وضحية في الوقت ذاته.

ـ كيف يمكن أن نكون الاثنين معاً؟

ـ إنه خطَر على الآخرين وهو ضحية نفسه. إنه غارق في الخطأ ولايعرف أو أنه لايريد أن يعرف. إن الاعتراف بالأخطاء يتطلب شجاعة لايمتلكها العنصري. ليس من السهل الاعتراف بأننا أخطأنا وأن ننتقد ذاتنا.

ـ ماتقوله ليس واضحاً جداً!

ـ أنتِ على حق. يجب أن أكون واضحاً. من

السهل القول «أنت مخطئ وأنا على حق»، من الصعب أن نقول «أنت الذي على حق وأنا المخطئ».

ـ أتساءل ما إذا كان العنصري يعرف أنه مخطئ.

ـ في الواقع يمكنه أن يعرف إذا أراد تكبّد عناء الأمر وإذا امتلك شجاعة أن يطرح على نفسه كل الأسئلة.

ـ أية أسئلة؟

ـ هل أنا حقاً متفوق على الآخرين؟ هل صحيح أنني أنتمي إلى جماعة متفوقة على الآخرين؟ هل يوجد جماعات أدنى من جماعتي؟ وإذا فرضنا أنه يوجد جماعات أدنى فلماذا أحاربها؟ وهل أن الاختلاف الفيزيائي يعني اختلافاً في قابلية التعلم؟ بطريقة أخرى هل أننا أذكى لأن بشرتنا بيضاء؟

ـ الناس الضعفاء والمرضى والمسنون والأطفال والمعوقون، هل كل هؤلاء دونيّون؟

ـ إنهم كذلك في أعين الجبناء.

ـ هل يعرف العنصريون أنهم جبناء؟

ـ كلا لأن الاعتراف بالجبن يتطلب شجاعة...

ـ أبي أنت تدور في حلقة مفرغة.

ـ نعم ولكني أريد أن أُظهر لكِ كيف أن العنصري سجين تناقضاته ولايريد أن يتخلص منها.

ـ إنه مريض إذن!

ـ نعم، نوعاً ما، عندما نفلت، نذهب صوب الحرية، والعنصري لايحب الحرية. إنه يخاف منها مثلما يخاف من الاختلاف. إن الحرية الوحيدة التي يحبها هي حريته، تلك التي تسمح له أن يفعل مايريد وأن يحكم على الآخرين وأن يجرؤ على احتقارهم لمجرد أنهم مختلفون.

ـ أبي أريد أن أقول كلمة فظة: العنصري قذر.

ـ الكلمة صغيرة ياابنتي ولكنها على قدر من الصحة.

خلاصة

يجب أن يكون الكفاح ضد العنصرية منعَكساً يومياً. ويجب ألا ينخفض تيقظنا أبداً وأن نبدأ بإعطاء المثال والانتباه إلى الكلمات التي نستخدمها. إن الكلمات خطيرة. بعضها يستخدم للتجريح والإهانة وتغذية الحذر وحتى الكراهية. وبعضها يحوَّل عن معناه العميق ليغذي نوايا الطبقية والتمييز. بعضها الآخر جميل وسعيد. يجب التنكّر للأفكار الجاهزة وبعض المقولات والأمثلة التي تتجه صوب التعميم وبالتالي العنصرية. يجب أن تحذفي من مفرداتكِ التعابير التي تحمل أفكاراً خاطئة وخبيثة. الكفاح ضد العنصرية يبدأ بالعمل

على اللغة. من جهة أخرى، يتطلب هذا الكفاح إرادة ومواظبة وخيالاً. لايكفي الاستنكار أمام خطاب أو سلوك عنصري. يجب أيضاً أن نتصرف وألا نسمح بتمرير انحراف ذي طابع عنصري. لاتقولي أبداً: «ليس الأمر خطيراً» وإلا فإننا نسمح للعنصرية بالازدهار والتطور حتى عند أشخاصٍ قد يكونون تمكنوا من تجنبها وأن ينغمسوا في هذه المصيبة. إذا لم نرتكس ولم نتصرّف نجعل العنصرية عادية ومتعجرفة. اعلمي أن القوانين موجودة وهي تعاقب الحض على الكراهية العرقية. واعلمي أن هناك أيضاً روابط وحركات تكافح ضد أشكال العنصرية وتقوم بعمل رائع.

عند بدء المدرسة انظري إلى كل التلاميذ ولاحظي أنهم كلهم مختلفون، وأن هذا التنوع شيء جميل. إنها فرصة للإنسانية. هؤلاء الطلاب يأتون من آفاق مختلفة وباستطاعتهم أن يقدموا لك أشياء لاتملكينها مثلما تستطيعين أن تقدمي لهم شيئاً لايعرفونه. إن الخليط غنيٌ متبادل.

اعلمي أخيراً أن كل وجه هو معجزة. إنه فريد. لن تصادفي أبداً وجهين متماثلين تماماً.

بغض النظر عنِ البشاعة والجمال. فهي أشياء نسبية. كل وجه هو رمز للحياة. وكل حياة تستحق الاحترام. لايحق لأحد أن يهين شخصاً آخر. لكلٍّ الحق بالكرامة. باحترام كائن ما نحترم من خلاله الحياة بكل مافيها من جميل ورائع ومختلف ومفاجئ. عندما نعامل الآخرين باحترام نشهد على احترامنا لذاتنا.

حزيران ـ تشرين أول

1997

الطاهر بن جلّون أديب وروائي مغربي عربي مقيم في فرنسا وحائز على جائزة "غونكور" الفرنسية أراد من خلال هذا النص فضح السلوك العنصري وتحليل شخصية العنصري في كل الأزمنة والمواقع. وقد وضع النص أساساً كرد على أسئلة ابنته التي استوضحته عن العنصرية. أثناء ذهابهما معاً للمشاركة في تظاهرة ضد قوانين جديدة للهجرة. لذلك فهو يتوجه أولاً للشباب الذين ينتظرون أجوبة عن السلوك العنصري وأسبابه، وكذلك للكبار الذين يريدون أن يجيبوا عن تساؤلات أولادهم، وتربيتهم تربية إنسانية ترفض الظلم والتمييز بكل أشكاله العرقية والطبقية والطائفية.

الناشر